الفصل الثاني

صور المجتمع الجاهلي

كانت القبائل العربية موزعة في جزيرة العرب،في مدنها وقراها، وفي صحاريها الواسعة، فمن كانوا منهم يسكنون المدن والقرى يسمون "الحضر"، ومن كانوا ينزلون البادية يسمون "البدو"، وهناك فرق كبير بين حياة البدو وحياة الحضر، فقد كان لكلّ منهم أسلوب خاصّ في الحياة والمعيشة،تبعاً لاختلاف ظروف البيئة التي كانت تحيط بكل منهما.

الحضر: كانت حياتهم مستقرة، حيث يعيشون في المدن والقرى، وكان بالجزيرة العربية مدن كثيرة أشهرها في الشمال مكة والمدينة والطائف، وفي الجنوب مدن اليمن كمأرب وصنعاء وزَبِيد وعدن.

واشتهر أهل الشمال بالتجارة، فكان هناك من السكان من اشتغل بها واعتمد عليها، " وكان في جزيرة العرب طريقان عظيمان للتجارة بين الشام والمحيط الهندي: أحدهما يسير شمالاً من حضرموت إلى البحرين على الخليج الفارسي - ومن ثم إلى صور، والثاني يبدأ من حضرموت أيضاً، ويسير محاذياً للبحر الأحمر متجنباً صحراء نجد وهجيرها،ومبتعداً عن هضاب الشاطئ ووعورتها، وعلى هذا الطريق الأخير تقع مكة في المنتصف تقريباً"(١). وقد تهيأت لمكة أسباب سياسية ودينية جعلتها مركزاً هاماً للتجارة في الجاهلية، ففيها البيت الحرام الذي يقدسه جميع العرب، ثم موقعها الجغرافي، حيث تقع في منتصف الطريق التجاري، وبالقرب منها عين زمزم التي كانت القوافل تستقي منها، وتأخذ حاجتها من الماء. وكانت قريش سَدَنَة البيت الحرام، يقومون بالعناية به والمحافظة عليه،مما أكسبهم احتراماً خاصّاً وجعلهم في منزلة عظيمة عند العرب جميعاً، فكان هذا له الأثر الفعال في تحسين مركزهم التجاري.

وقبيلة قريش من أكثر الحجازيين تحضراً، فقد أغنتها التجارة، وملكت بسببها ثروة عظيمة، حتى إن بعض العلماء يرى أنها سميت قريشاً لاشتغالها بالتجارة، ففي لسان العرب: "وقيل سميت بذلك لأنهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب ضرع،

---

(١) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص١٢.

وزرع، من قولهم فلان يتقرَّش المال، أي يجمعه" وقد ذكر القرآن الكريم ما كانوا عليه من الثراء والأمن، قال الله تعالى: ﴿ **لإيلاف قُرَيْشٍ ، إيلافهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاء والصَّيف، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذا البيتِ ، الذي أطعَمَهم مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُم مِن خوفٍ** ﴾ [قريش : ١-٤] فكان لهم رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى بلاد الشام.

ومن أهم السلع التي كانت تتجر بها قريش: الأَدَم والزبيب، والصمغ والطيب والحرير، والبرود اليمانية والثياب العدنية، ومصنوعات الحديد والأسلحة، ثم الغلات لا سيما البخور الذي يكثر في الجنوب، وغير ذلك.

أما أهل الجنوب فكانوا أمعن في الحضارة من أهل الشمال واشتهروا بالزراعة والصناعة، فالزراعة تزدهر حيث المياه الغزيرة، والأراضي الخصبة مما يلزم للنبات والزرع والأشجار والثمار، وقد كانت اليمن جنَّة وارفةَ الظلال، ونقل المؤرخون(١) كثيراً من أحوالهم مما يدل على إفراط في الترف والنعيم، وما كانوا يلبسونه من النسيج الفاخر والحرير الأذربيّ، وما يقتنون من أطباق الذهب والفضة، وما يزينون به قصور أغنيائهم من أنواع الزينة، وما يحيطونها به من الحدائق والبساتين. قال تعالى: ﴿ **لقد كانَ لسبأ في مَسْكَنِهِم آيةٌ جنَّتانِ عن يمينٍ وشمالٍ كُلُوا مِن رِزْقِ رَبِّكُم واشكروا له بلدةٌ طيبةٌ ورَبٌّ غَفُورٌ** ﴾ [سبأ : ١٥].

واشتهرت اليمن بدباغة الجلود حيث صنعوا منها الدلاء والقِرَبَ والنعال والخفاف وغير ذلك، كما اشتهرت بالنسيج والحياكة، ومن أشهر ثيابهم البرود اليمانية.

أما البدو: فكانوا القسم الغالب من سكان الجزيرة العربية، وهم قوم رُحَّل يسكنون الخيام، ولا يقرون في مكان، لأنهم يطلبون الكلأ، فيتبعون مساقط الماء ومنابت العشب، فيرحلون إليها بأغنامهم وآبالهم التي يأكلون لحومها وألبانها ويلبسون أصوافها، ويتخذون من أصوافها وأوبارها مساكن لهم.

وكان من المعروف عنهم القناعة من العيش بالكفاف، فلا يفتنون في ألوان المطاعم والملابس، بل كانوا يعيشون غالباً على اللبن والتمر واللحم، وكانوا يأنفون من الاشتغال بالزراعة والصناعة والتجارة، بل يحتقرون مثل هذه الأعمال ويرون فيها عاراً كبيراً. وكانوا يفتخرون بالبطولة والقدرة على القتال والنزال، ولا شك أنهم أكثرُ شجاعة وأقلُّ حبّاً للمال من أهل الحضر.

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي جـ ٢ ص١٨ ـ المكتبة التجارية بالقاهرة سنة: ١٩٥٨م.

وانتشرت عندهم الغارات وشاع بينهم السلب، فيغيرون على قبيلة معادية، فيأخذون أنعامهم ويسبون نساءهم وأولادهم، ثم تتربص بهم القبيلة الأخرى لتدرك ثأرها،وتفعل بهم مثل ما فعلوا بها.

وقد اعتمدوا على الخيل في السلم وفي الحرب، يصطادون عليها الوحش من الحيوان للغذاء، ويغيرون بها ويقاتلون الأعداء، ثم الإبل التي اعتمدوا عليها في حياتهم ومعاشهم، فهي تدر لهم الحليب، وتحملهم في الأسفار، وكثيراً ما كانت الثروة تقدر عندهم بما يملكه الرجل من الحيوانات وخاصة الإبل والخيل،التي كانت لها قيمة عظمى في نظرهم، فكان العربي يميل إلى الإكثار منها، لأنها المورد الحقيقي للرزق والثروة.

على أن الأسواق التي كانت تقام في الجاهلية للبيع والشراء،والأخذ والعطاء كان لها أكبر الأثر في موارد الرزق، وأمور المعيشة عند العرب جميعاً، الحضر منهم والبدو، فكانت تحضرها كلُّ القبائل بما عندها من مآثر ومفاخر. ولقد كانت هناك أسواق كثيرة، يقيمونها وينتقلون من بعضها إلى بعض، ومنها ما كانت ثابتة مع أيام السنة، ومنها ما كانت موسمية تقام في مواسم معينة، وفي أماكن متفرقة وأنحاء مختلفة، من الجزيرة العربية. وقد ذكر الألوسي كثيراً من هذه الأسواق ومواقيتها فمما ذكره منها(١):

دُوْمَةُ الجَنْدَل: وكانوا ينزلونها أول يوم من ربيع الأول،وكانت المبايعة تتم فيها ببيع الحصاة(٢)، وهو من بيوع الجاهلية التي أبطلها الإسلام، وكان يرعى الناس ويقوم بأمرهم أُكَيْدِر بن عبد الملك صاحب دُومة الجندل. وتستمر سوقهم إلى نصف الشهر، وقد يغلب على السوق بنو كلب فيقوم بأمرهم بعض رؤسائهم،وتستمر سوقهم عند ذلك إلى آخر الشهر.

وسوق هَجَر: بالبحرين، وكانوا ينتقلون إليها في شهر ربيع الآخر، ويتولى أمرهم المنذر بن سَاوَى أحد بني عبد الله بن دارم.

---

(١) بلوغ الأرب للألوسي جـ١ ص٢٦٤.

(٢) بيع الحصاة: قيل هو أن يقول أحد المتبايعين للآخر: إرم هذه الحصاة فعلى أي ثوب وقعت فهو لك بدرهم، أو أن يبيعه سلعة على كف من الحصى ويقول: لي بكل حصاة درهم، وقيل معناه غير ذلك (انظر بلوغ الأرب للألوسي ١/٢٦٤).

وسوق عُمان: وكانوا يرتحلون من سوق هَجَر إليها، فتقوم سوقهم بها، وتستمر إلى أواخر جمادى الأولى.

وسوق ذي المَجاز: وكانت لهُذَيل، وهي على بعد فرسخ من عرفة.

وسوق مَجَنَّة :وهو موضع قرب مكة، كانت تقوم به قرب أيام الحج، ويحضرها كثير من قبائل العرب.

وسوق عكاظ: وكانت أعظم مواسمهم وأسواقهم، وهو وادٍ بين نخلة والطائف وهو أقرب إلى الطائف، وكانت تقوم أيام موسم الحج، وتحضرها كلُّ القبائل بشعرائها حيث يتفاخرون ويتحاجون ويتناشدون ما ينسال على ألسنتهم من أشعار. ومن أسواقهم أيضاً: سوق المُشَقَّر، وسوق صُحار، وسوق الشَّحْر، وسوق صنعاء، وسوق حُباشَة إلى غير ذلك من الأسواق التي كانت تقيمها العرب وتحرص عليها، لأجلِ البيع والشراء، وبسبب المفاخرة بالشعر والأدب. وبعبارة أخرى كانت الأسواق معرضاً عاماً لحياة العرب في جزيرتهم، بكلّ أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والأدبية كذلك.

ومما كان يميز حياتهم الاجتماعية النظام القبلي الذي كان سائداً في الجاهلية، والذي لا تزال بعض مظاهره موجودة حتى اليوم، فكانت القبيلة هي الوحدة التي بنيت عليها حياتهم، فأفراد القبيلة يحبّون قبيلتهم وينصرونها،ويتفانون في إخلاصهم لها،ويعملون على رفع شأنها، وإعلاء كلمتها بين القبائل الأخرى، فكانت العلاقة بين أفراد القبيلة تقوم على العصبية والتضامن، والتناصر والتعاون، وكان الواحد منهم يفنى في قبيلته يغوي إذا غوت، ويرشد إذا رشدت، كما يقول دريد بن الصمة.

وهل أنا إلا من غَزِيةَ إن غوت غويْتُ وإن ترشُدْ غَزية أرشُدِ[١]

وكان للقبيلة مجلس يتألف من وجهاء الأقوام وزعمائها،وكان يرأس مجلسهم شيخ القبيلة، وشيخ القبيلة يتميز بصفات هي التي تدفعه إلى مركز الصدارة بين قومه فهو أقواهم شخصية، وأوصفهم بالشجاعة والسخاء، والفصاحة واللَّسَن والوقار والهيبة، ثم هو أوسعهم صدراً، وأرجحهم عقلاً، وغالباً ما يكون آباؤه ممن أورثوه المجد والرياسة بين قومه.

---

(١) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام د. عبد الحميد المسلوت ص١٧ وغزية قبيلة من هوازن وهي رهط الشاعر.

وتظل القبيلة متمسكة بكل فرد من أفرادها، تحافظ عليه وترعاه، ما دام يسير تحت توجيهاتها، وحسب إرشاداتها،فإذا ما خالَفَ ذلك أو سلك طريقاً لا ترضى عنه قبيلته، خلعته منها وسمي "خليعاً" أي مخلوعاً من القبيلة، وعند ذلك عليه أن يبحث عن مكان يُؤويه، أو قبيلة تحميه.

وكان لكل قبيلة شاعرٌ أو أكثر يتغنى بمفاخرها ومجدها، ويسجل شرفها وفضلها وهو لسان حالها، والمذيع لأخبارها، وكانت العلاقة بين القبائل تقوم غالباً على الحذر والتربص،وانتهاز الفرص والتنافس "وهذا التنافس يرجع بين القبائل الجاهلية إلى عاملين رئيسين: مادي وأدبي،فهو إما طمع في إبل، أو مرعى، أو بئر، أو فرس، أو متاع ما، وإما رغبة في رياسة،أو أخذ بثأر، أو اعتزاز بنفس، أو مفاخرة بقوة، أو غضب لجار أهين، أو عهد نقض، أو مجاراة لسفيه"(١).

ولم يكن النظام القبلي محصوراً في البادية فقط،وإنما كان في المدن أيضاً بين أهل الحضر، ومن الواضح أن هذه العصبية القبلية ؛ التي ترتبت على النظام القبلي كانت من أهم أسباب النزاع الذي نتجت عنه الحروب والأيام والمعارك الدموية التي أورثت أحقاداً وحزازات تأصلت في نفوس العرب. إذ إن هذه العصبية القبلية الضيقة كانت السبب في افتقاد المجتمع الواحد الكبير،ثم إن هذه المنافسات بين زعماء القبائل كانت تؤدي دائماً إلى عدم الاستقرار وفقدان الأمن، وإلى تفكك المجتمع وتفرقه بصفة عامة.

وقد شاع في المجتمع الجاهلي بعض الآفات والنقائض التي من أهمها الخمر والقمار أو الميسر،فنجد الخمر تجري إلى كل لسان، وكان أكثر من يتّجر بها اليهود والنصارى حيث يجلبونها من بلاد الشام والحيرة والعراق، وقد ذكرها الشعراء في أشعارهم، وتحدثوا عنها مفاخرين بأنهم يشربونها ويقدمونها لرفاقهم، فهي تقترن بالكرم والسخاء، إذ إنها تقدم مع اللحم غالباً، ومن ذلك قول الحادرة الذبياني يخاطب محبوبته سُمَيَّة:

فَسُمَيَّ ما يُدريك أنْ رُبَّ فِتْيَةٍ ... باكرتُ لذَّتهم بأدْكَنَ مُتْرَعِ
مُحْمَرَّةً عَقِبَ الصَّبوحِ عيونُهم ... بِمرىً هناكَ من الحياةِ ومَسْمَعِ

---

(١) تاريخ الشعر السياسي للأستاذ أحمد الشايب ص٤٦ وفي الأصل «رئيسيين» وهو خطأ شائع.

مُـتَـبَطِّحِينَ على الكنيفِ كـأنَّهـم يبكـونَ حـــولَ جنازةٍ لم تُرفَـعِ
بَكَروا عليَّ بسُحْـرَةٍ فَصَبَحْتُـهُـمْ من عـاتقٍ كَدَمِ الغَـزالِ مُـشَعْـشَعِ
ومُـعَـرَّضٍ تَغْلِي المراجِلُ تَحـتَـهُ عَـجَّلْتُ طَبْـخَـتَـهُ لرهطٍ جَـوَّعِ (١)

فالشاعر يفتخر بتقديم الخمر لزملائه وأصدقائه،ويصف حالهم من الإتيان على الشراب وكثرة السهر،وأنهم يشربونها علناً، بمرأى من الناس ومسمع منهم، مما يدلّ على أنهم من سادات القوم،ثم يصف منظرهم وقد أخذ السكر منهم كل مأخذ، فلا يبالون في أي مكان ينامون، وفي البيت الأخير يتكلم عن قطع اللحم التي كانت تعرض للطبخ وكيف عجَّل بطبخها حتى نضجت وقدمت للسكارى الجائعين.

وهذا المُتَنَخِّل الهذلي يصور الساقي وهو يسعى بأقداح الشراب، وكان الساقي فتىً أعجمياً. ويصف الشاعر الخمر في إنائها صافية ساكنة، تتناولها الأيدي فتلذ لسورتها، وكيف أنهم يشعشعونها بالماء حتى ترقّ وتخفّ حموضتها، فيقول:

يُمَـشِّي بيننا حـانوتُ خَـمْـرٍ من الخُـرْسِ الصَّـراصِـرَةِ القِطَاطِ
رَكـودٍ في الإناءِ لهـا حُـمَـيَّـا تَلَذُّ بأخـذها الأيدي السَّـواطي
مُـشَعْـشَعَـةٍ كعينِ الدِّيكِ لَيْسَتْ إذا ذِيقَتْ من الخَلِّ الخِـمـاطِ (٢)

ومع إقبال العرب على الخمر يشربونها ويصفونها ويفتخرون بها، كان هناك من العقلاء والحكماء من حرمها على نفسه، لما يترتب عليها من السكر وذهاب العقل الذي لا يتناسب مع الوقار والهيبة والكمال. ويذكر الألوسي أن العرب كانوا يُحرِّمون الخمرَ على نفوسهم في مدة طلبهم للثأر حتى يأخذوا بثأرهم، لأنها مُشْغِلَةٌ لهم عن كريم الأخلاق(٣).

وأما الميسر فكان من مفاخر العرب، لأنهم كانوا يفعلونه في أيام الشدة والجوع والقحط. وكانوا أكثر ما يجتمعون على الميسر أثناء الليل حيث يوقدون ناراً لذلك، ويقتسمون لحم الجزور الذي يذبحونه بحسب قداح يضربونها، لكل قدح منها

(١) المفضليات للضبي ص٤٣.
(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ٣ ص١٢٦٨.
(٣) بلوغ الأرب جـ٣ ص٢٤.

نصيب معلوم، وكانت عادتهم فيه أن يذبحوا ناقة أو بعيراً،ويقسموا ما يذبحونه عشرة أجزاء، ثم يأتوا بأحدَ عشرَ قدحاً، يجرون عليها قمارهم، وكانوا يجعلون لسبعة منها نصيباً إن فازت وعلى أصحابها غرم إن خابت، وأكبرها نصيباً يسمى المُعَلَّى . أما الأربعة الباقية فلا حَظَّ لها حتى إن فازت(١).

وقد ظهر حديث الميسر في شعرهم كثيراً وخاصّة أثناء الفخر بالكرم والسخاء، والحق أن العرب في الجاهلية لاسيما ساداتهم وأشرافهم ورجالاتهم وأجوادهم كانوا يتقامرون بالقداح، فإذا غنموا لم يأخذوا منه شيئاً،بل يجعلوه للفقراء وذوي الحاجة، وكانت العرب تمدح من يأخذ القداح، وتعيب من لا يشترك مع القوم في الميسر مخافة الغرم وتسميه " البَرَم" كقول مُتَمّمِ بن نويرة اليربوعي يرثي أخاه مالكاً.

ولا بَرَماً تهدي النساءُ لعِرسِه ... إذا القَشْعُ من بردِ الشتاءِ تَقَعْقَعَا

ولا شك أن الميسر من الأوبئة الاجتماعية التي تفسد المجتمع، ففيه أكل أموال الناس بالباطل، وهو يدعو كثيراً من المقامرين إلى السرقة وتلف النفس، وقد تُرتكب فيه بعض الحماقات ورذائل الأمور، ثم إنه يستجلب العداوة والبغضاء،ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة وغير ذلك من أفعال الخير، قال تعالى: ﴿**إنما يُريدُ الشَّيطانُ أن يُوقِعَ بينكُمُ العداوةَ والبغضاءَ في الخمرِ والميسرِ ويصدَّكُم عن ذكرِ الله وعنِ الصلاة فهل أنتُمْ منتهونَ**﴾ [المائدة: ٩١]، وغير ذلك من الآيات الكريمة التي نزلت في النهي عن الخمر والميسر، والتي تدلّ على أن هذه الآفات كانت شائعة عند العرب في الجاهلية، كقوله تعالى: ﴿**يسألونَك عن الخمرِ والميسرِ قلْ فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناسِ وإثْمُهما أكبرُ من نفعِهما**﴾ [البقرة: ٢١٩] وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿**إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطان فاجتنبوه**﴾ [المائدة: ٩٠]. ومن الآفات التي شاعت عند بعض العرب في الجاهلية وأدُ البنات، قال المبرد: " وكانت العرب في الجاهلية تئد البنات، ولم يكن هذا في جميعها إنما كان في تميم بن مُرٍّ، ثم استفاض في جيرانهم، فهذا قول واحد، وقال قوم آخرون: بل كان في تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل"(٢).

---

(١) العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ص٧١.

(٢) الكامل للمبرد جـ ٢ ص٨٢ ط نهضة مصر.

وكانت مذاهب العرب في الوأد مختلفة، فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة عليهن، والخوف من لحوق العار بسببهن لاسيما وقد كثر عندهم السَّبْيُ، وهم بنو تميم وقبائل أخرى. ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الفقر، ومخافة العجز عن النفقة عليهن، وهم الفقراء من بعض قبائل العرب، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ **ولا تَقْتُلوا أولادَكم خشيةَ إملاقٍ نحنُ نرزُقُهم وإيّاكُم إنَّ قَتْلَهُم كان خِطْأً كبيراً** ﴾ [الإسراء: ٣١] ومنهم من كان يئد من البنات من كانت فيها صفة يتشاءمون منها كأن تكون زرقاء أو شَيمْاء[١] أو برشاء أو كسحاء[٢].

وإذا كان بعض العرب قد وأد البنات خشية العار أو الفقر،فقد كان ذلك في طبقة منحلة منهم، وأعتقد أنهم كانوا من أجلاف الأعراب وقساة القلوب، وقد صورهم القرآن الكريم أروع تصوير في قوله سبحانه: ﴿ **وإذا بُشِّرَ أحدُهُمْ بالأُنْثَى ظَلَّ وجهُه مُسْوَدّاً وهو كَظيمٌ، يتوارى من القومِ مِن سُوءِ ما بُشِّرَ به أَيُمْسكُهُ على هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ في الترابِ ألا ساءَ ما يحكمون** ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩]. إذ إننا نجد كثيراً من عقلاء العرب وحكمائهم لا يرتضي هذا الفعل، فمن الذين استنكروا الوأد، زيد بن عمرو بن نفيل القرشي الذي كان يستحيي الموءودات، فإذا بَصُرَ برجل يهم بوأد ابنته، قال له: لا تقتلها، أنا أكفيكَ مُؤْنَتَها، ويأخذها، وينفق عليها حتى تكبر، ثم يقول لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مُؤْنتها[٣]. كما روي أن صعصعة بن ناجية بن عقَال كان يشتري البنت ممن يريد وَأْدَها خشية الإملاق، فأحيا بذلك ستاً وتسعين موءودة إلى زمن النبي ﷺ .وقد افتخر الفرزدق بإحياء جده صعصعة للموءودة فقال:

ومنَّا الذي مَنَعَ الوائداتِ وأَحْيَا الوئيدَ فلم يُوأَدِ[٤]

وكان من آفاتهم زواج المقت، وهو أن يجمع الرجل بين الأختين، وزواج الشِّغار وهو أن يتزوج الرجل أخت صديقه على أن يزوجه أخته، وكذلك زواج الابن من امرأة أبيه بعد موته، ونحو ذلك من العادات السيئة التي حرمها الإسلام، وربما كانت هذه العادات ترجع إلى المبالغة في الأثرة والمحافظة على العرض.

---

(١) الشيماء: السوداء، والبرشاء: من البرش وهو بياض يظهر في الجسد مثل البرص.
(٢) انظر بلوغ الأرب للألوسي ٣/٤٣.
(٣) بلوغ الأرب للألوسي جـ٣/٤٥.
(٤) المرجع السابق ٣/٤٦.

وشاعت عند العرب في الجاهلية صفات كريمة،وآداب قويمة، اكتسبوها من حياتهم الصريحة الواضحة، ومن صحرائهم الواسعة الصافية، فكانوا يتمدحون بالكرم والسخاء والمروءة ومحاسن الأخلاق، ويفتخرون بالشجاعة وإباء الضيم والوفاء وصيانة الشرف والمحافظة على الأعراض.

ومن أعظم المكرمات عندهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلاً على الكثبان والجبال، حتى يهتدي بها الضيفان والضالون في الصحراء، فيعرفون منازل القوم،فإذا وفدوا إليهم أمَّنوهم ورَحَّبُوا بهم، حتى ولو كانوا من أعدائهم.

واشتهر من أجوادهم وسمحائهم كثيرون، مثل حاتم الطائي الذي ضرب بجوده المثل، والذي قال:

أمــاوِيَّ إن المالَ غــادٍ ورائِحٌ ... ويَبْقَى من المالِ الأحاديثُ والذكرُ (١)

كما أنه الذي يقول لأحد عبيده:

أوقــدْ فــإنَّ الليلَ ليلٌ قُــرُّ ... والريحُ يا غــلامُ ريحٌ صِــرُّ

عَـلَّ يرى نـارَكَ مَن يَـمُــرُّ ... إن جَلَبْتَ ضَـيْـفـاً فـأَنْتَ حُـرُّ

ونرهم قد تمدحوا السخاء، وأشادوا بالبذلِ والعطاء، كما قال زهير يمدح حِصْن ابن حذيفة بن بدر الفزاري:

وأبيضَ فـيـاضٍ يداهُ غَـمـامـةٌ ... على مُـعْـتَـفِيـهِ ما تُغِبُّ فَواضِلُهْ

إلى أن يقول:

أخي ثقـةٍ لا تتلفُ الخـمـرُ مـالَه ... ولـكنه قـد يُهلِكُ المالَ نائِلُـهْ

تَراهُ إذا مـا جِـئْـتَـهُ مُـتَـهَلِّـلاً ... كـأنَّكَ تعطيـه الذي أنْتَ سـائِلُـهْ

وفي البيت الأخير من القصيدة يمدحه بالشجاعة وإباء الضيم فيقول:

ومن مثلُ حصنٍ في الحروبِ ومثلُهُ ... لإنكارِ ضَـيْمٍ أو لأمـرٍ يُحَـاوِلُـهْ (٢)

---

(١) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام د. عبد الحميد المسلوت ص١٧.

(٢) نصوص أدبية للأستاذين/ أحمد إبراهيم الشعراوي وعبد المقصود السعداوي ص٧١ وما بعدها.

وكان العرب لا يقدرون شيئاً كما يقدرون الوفاء بالوعد،وبلغ من اعتدادهم بهذه الصفة أنهم كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء في أسواقهم ومجامعهم حتى يعرفه الناس ويلحق به العار، كقول الحادرة لمحبوبته سمية:

أَسُمَيَّ وَيْحَكِ هل سمعتِ بغَدْرَةٍ ... رُفِعَ اللواءُ لنا بِها في مَجْمَعِ

وكانوا يتمدحون بكل صفة تؤكد معنى العزة والكرامة، كإغاثة الملهوف،ومناصرة الضعيف، وحماية الجار، والعفو عند المقدرة.

وكان للمرأة العربية شأن كبير في المجتمع الجاهلي، فكان الشعراء يذكرونها في قصائدهم، بل ويبدؤون القصيد بها، ويتغنون بجمالها. فهذا امرؤ القيس يصف لنا محاسن محبوبته، وإن كانت الصفات التي لفتت نظره من الصفات الحسية المحضة، وقد ذهب يصف كل عضو فيها من أسفلها إلى أعلاها، فصور لنا خدها الأسيل، وعُنُقَها الجميل، الذي يشبه عنق الظباء، وشعرها الأسود المرسل على ظهرها، وذوائبها وضفائرها المرفوعة إلى قمة رأسها، ثم صور خصرها الدقيق، اللين الرقيق، وساقيها البيضاوين الناعمين، ولم يغفل عن وصف ما تتزين به من طيب وحُلِيٍّ وثياب مشيراً بذلك إلى أنها منعمة ومرفهة، فيقول في معلقته:

تَصُدُّ وتُبْدي عن أَسيلٍ وتَتَّقي ... بناظِرَةٍ من وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ
وجيدٍ كَجيدِ الرِّئْمِ ليس بِفاحشٍ ... إذا هي نَصَّتْهُ ولا بِمُعَطَّلِ
وفَرْعٍ يزينُ المَتْنَ أَسْوَدَ فاحِمٍ ... أَثيثٍ كَقِنْوِ النخلة المُتَعَثْكِلِ
غَدائِرُها مُسْتَشْزِراتٌ إلى العُلاَ ... تَضِلُّ العِقاصُ في مُثْنىً ومُرْسَلِ
وكَشْحٍ لطيفٍ كالجديلِ مُخَصَّرٍ ... وساقٍ كأنْبوبِ السَّقِيِّ المُذَلَّلِ
وتُضْحي فَتيتُ المِسْكِ فوقَ فِراشِها ... نؤومُ الضُّحَى لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ (١)

وهذا ساعدة بن جُؤَيَّة الهذلي يتغزل في محبوبته غضوب، ويعاتبها على عدم الوصال، بل ويعاتب نفسه لأنه لم يترك ذكر الغضوب، فما زال فؤاده متعلقاً بها ولا يستطيع تركها، يقول:

هَجَرَتْ غَضوبُ وحُبَّ من يَتَجَنَّبُ ... وَعَدَتْ عَوادٍ دون وَلْيِكَ تَشْعَبُ

---

(١) قطوف من ثمار الأدب للدكتور/ عبد السلام سرحان ٢/ ٧.

ومن العوادِي أن تقيكَ ببَغْضَةٍ   وتَقَاذُفٍ منها وأنَّك تُرْقَبُ
شابَ الغُرابُ ولا فؤادُكَ تارِكٌ   ذكرَ الغضوبِ ولا عتابُكَ يُعْتَبُ

ثم صرح بحبه لها، وذهب يصور جمالها الساحر،وحسنها الفاتن،فوصف ثغرها الجميل وشبهه بالأقحوان،ووصف حلاوة ريقها وشبهه بالعصير البارد، ثم وصف مذاقه وخاصة في هدوء الليل، فشبهه بأَرْي الجوارس وهو عسل النحل.

إني لأهواها وفيها لامْرِئٍ   جادَتْ بنائلها إليْه مَرْغَبُ
وَمُنَصَّبٌ كالأُقْحُوانِ مُنَطَّقٌ   بالظَّلْم مَصلوتُ العوارِضِ أَشْنَبُ
كسُلافَةِ العنبِ العصيرِ مَزاجُهُ   عودٌ وكافورٌ وَمِسْكٌ أَصْهَبُ
خَصِرٌ كأَنَّ رُضَابَهُ إذا ذُقْتُهُ   بعدَ الهُدُوِّ وقد تعالى الكَوْكَبُ
أَرْيُ الجَوارِسِ في ذُؤَابَةِ مُشْرِفٍ   فيه النُّسورُ كَما تَحَبَّى المْوكبُ[1]

فهذا الشعر وأمثاله إن دل على شيء فإنما يدل على مكانة المرأة في مجتمعهم وكانت المرأة العربية تتمتع بنصيب وافر من الاحترام والحرية، فكانت تشاطر زوجها أعباء الحياة، بل كان النساء يقفن خلف الجيوش في المعارك ليبعثن الحَميَّة في نفوس الرجال، فيستميتون في القتال، خوفاً على نسائهم وأعراضهم أن تهدر في السَّبْيِ. وكثيراً ما كانت المرأة تستشار في أمر زواجها فتقبل أو ترفض، إلى غير ذلك من الأمور التي تدل على مكانتها وقدرها عندهم، ولما جاء الإسلام دَعَمَ احترام المرأة وعزَّز مكانتها، وأَمَّنَ حريتها.

معارف العرب:

وللعرب في الجاهلية معارف اشتهروا بها، وكانوا قد اكتسبوها عن طريق التجارب المتكررة، أو عن طريق الأسفار في التجارة، ولا بد لنا أن نلاحظ أن العرب في الجاهلية لم يكن عندهم علوم ذات قواعد على غِرار القواعد العلمية في العصور التي تلت العصر الجاهلي، وإنما كلّ ما يمكن فهمه أن عصرهم كان عصر تجارب واعية، ومشاهدات متكررة صادقة. أما ما ذكره بعض الكتاب كقولهم "علوم العرب" وذلك

(١) كتاب شرح أشار الهذليين جـ٣ ص١٠٩٧.

كالألوسي وغيره في قوله: ومن علومهم علم الطب وعلم الأنواء... إلخ. فإن ما كان عندهم من هذا القبيل لا يتعدى معلومات أولية، وملاحظات ضحلة، لا يصح أن تسمى علماً، وأما القواعد والبحث المنظم الذي يسمى علماً فلا عهد للعرب الجاهليين به(١). وإن كان يبدو لي أن المراد بالعلم ما يشمل المعرفة، فالعرب الجاهليون أصحاب معارف لا علوم، وكذلك علينا أن نلاحظ أنهم كانوا أحياناً لا يحسنون ربط الأسباب بمسبباتها فنتج عن ذلك بعض الاعتقادات العجيبة التي لا تتفق مع المنطق الصحيح كما سيأتي، ومن أشهر معارفهم:

الأنساب: والعرب أكثر الناس معرفة بالأنساب وحفظها، ولم تخلُ قبيلة من قبائلهم من نسابة يُلحِق الفروعَ بأصولها، فكانوا على جانب كبير من النبوغ في الأنساب، لأنهم كانوا شديدي العنايةِ بها، لاعتزازهم بعنصرهم ودمهم، وهي من الأسباب التي تدعو إلى الأُلفة والتناصر، فحفظوا أنسابهم ليكونوا يداً واحدة على أعدائهم، وكان اعتمادهم فيها على الذاكرة لعدم شيوع الكتابة والتدوين عندهم. واشتهر عندهم كثير(٢) بحفظ أنسابهم وأنساب القبائل الأخرى حتى عرفوا بالنسابين، وكانوا من الكثرة بمكان حتى كادوا يكونون جميعاً على هذه الصفة. ومن ضرب بهم المثل في هذا الفن: دَغْفَل بن حنظلة السدوسِي من بني شَيْبان، وتحكى عنه منافسته لأبي بكر رضي الله عنه في معرفة الأنساب، فقد كان كلّ منهما مشهوراً بالإحاطة بأنساب العرب وأخبارها وأحوالها، وكما عرف عنه الشهرة في معرفة أنساب العرب، كان على معرفة بالأنواء والخرص بأحوال السماء والأخبار وأيام الناس، وسائر معارف العرب، ومنهم كذلك ورقاء الأشعر واسمه عبد الله بن حصين أحد بني تيم بن ثعلبة، وكان خطيباً بليغاً نَسّابة، ومنهم زيد بن الكيس النمري من بني عوف بن سعد ابن تغلب بن وائل، ويقال: إنه كان يقارب دَغْفَلاً في معرفة الأنساب، ومنهم النَّخّار بن أَوس ابن الحارث بن هُذَيْم القُضاعي، وصعصعة بن صَوْحان وكثير غيرهم.

والقيافة: وهي نوعان: قيافة الأثر وهي تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر والاستدلال بها على ذويها، وبذلك تعرف النَّعم الضالة والمسروقة. ويهتدون بها إلى اللصوص والهاربين، ويتتبعون الأعداء الذين يُغيرون عليهم وينهبون أموالهم. وقيافة البشر: وهي الاستدلال بهيئة الإنسان وملامحه وأعضائه على نسبه، وقد روي أن مُجَزِّزاً المُدْلجيَّ دخلَ فرأى أسامَة

---

(١) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص٤٨.

(٢) بلوغ الأرب للألوسي جـ٣ ص١٩٨.

ابنَ زيد وزيداً، وعليهما قطيفةٌ قد غَطّيا بها رؤوسَهما وبدت أقدامهما، فنظر إليها مجززٌ المدلجي وقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فسر بذلك النبي ﷺ(١). واشتهر بالقيافة البشرية من العرب بنو لِهْبٍ وكذلك بنو مُدْلجٍ وكثير غيرهم.

ثم الفراسة: وهي الاستدلال بالأمور الظاهرة على الخفية، كالاستدلال بشكل الإنسان وهيئته ولونه وكلامه على أخلاقه وفضائله ورذائله، ومرجع الفراسة إلى العقل، فكلما كان أرجح كلما كانت أقوى، لأنها من الأمور الظنية.

ثم الكهانة والعرافة: وهما بمعنى واحد وهو الإخبار عن المغيبات ماضية كانت أو مستقبلة أو حالية، وقيل: الكهانة الإخْبارُ عن الماضي والمستقبل، والعرافة الإخبار عن الماضي فقط، وكانت الكهانة شائعة عند العرب قبل الإسلام، فكانوا يفزعون إلى كهنتهم في تعرف الحوادث، والفصل في الخصومات، وعلاج المرضى، وتعبير الرُّؤَى، ومعرفة أمور المستقبل، كما كان الحال عند غيرهم من الأمم القديمة، ولما جاءت الشريعة الإسلامية أبطلتها، ونهت عن الاعتماد عليها، قال ﷺ: "من أتى كاهناً أو عرّافاً فصدَّقَهُ بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد" وذلك لكثرة ما فيها من الكذب، وحماية للعامة من أن يفتنوا بهم فيَضلُّوا عن الدين الحنيف.

"ولعل الحكمة في النهي عن ذلك لغلبة الكذب في كلامهم، ولأن في تصديقهم فتحَ بابٍ يوصل إلى لَظَى، إذ قد يَجُرُّ إلى تعطيل الشريعة والطعن فيها، لا سيما من العوام"(٢). ومن أشهر الكُهَّان في الجاهلية عُزَّى سلمة الكاهن، وشِقّ بن أنمار بن نزار، وسُطيح بن مازن بن غسان، وخنافر بن التوأم الحميري، وسواد بن قارب الدوسي، وطريفة الكاهنة، وزبراء، وسلمى الهمدانية، وعُفَيراء الحميرية، وفاطمة بنت مرّ الخثعمية. ومن العرافين رباح بن عجلة عراف اليمامة، والأبلق الأسدي عراف نجد(٣) وقد ترجم لهم الألوسي(٤) وذكر كثيراً من أخبارهم ونوادرهم.

---

(١) بلوغ الأرب للألوسي جـ٣ ص٢٦٢، وانظر «صحيح البخاري» الحديث (٦٧٧١).

(٢) المرجع نفسه ٣/ ٢٧٠ - ٢٧١.

(٣) وهما اللذان يقول فيهما عروة بن حزام العذري رضي الله عنه:

جعلتُ لعراف اليمامة حُكْمَهُ ... وعَرّافِ نجدٍ إن هما شفياني

فقالا نعم نشفي من الداء كله ... وقَاما مع العواد يبتدراني

فقالا شفاك الله، والله ما لنا ... بما حُمِّلت منك الضلوع يدان

(٤) بلوغ الأرب للألوسي جـ٣ ص٢٧٥ - ٣٠٧.

ثم الحكم والأمثال: التي تدلّ على ما كان لديهم من خبرة،بشؤون الحياة، ومعرفةٍ بأحوالِ النفس الإنسانية، والتي توضح ما كانوا يمتازون به من شدة الذكاء، وحدة الفطنة، وعُرفَ الحكماء برجاحة العقل، وأصالة الرأي، ودقة التفكير، وجمال التعبير، والنظر الصائب، والفهم الصحيح للحياة بما فيها من أحداث وتجارب، فكانت ألسنتهم تنطق بالحكمة البليغة الرائعة كلما حدث أمر، أو نزل خطب، أو أُخذ رأيُهم في مشكلة.

يقول الجاحظ: "ومن القدماء ممن كان يُذكر بالقَدْرِ والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء: لقمان بن عاد، ولُقيم بن لقمان، ومُجاشع بن دارِم وسَليط ابن كعب بن يربوع سموه بذلك لسلاطة لسانة... ولُؤي بن غالب، وقُسُّ بن ساعدة، وقُصَيّ بن كلاب. ومن الخطباء البلغاء والحكام والرؤساء: أكثم بن صَيْفيّ، وربيعة بن حُذار، وهرم بن قطبة، وعامر بن الظرب، ولبيد بن ربيعة"(١).

وكان العرب يلجؤون إلى هؤلاء الحكماء في الخصومات والمفاخرات والمنافرات وشدائد الأمور، وكان في كل قبيلة حكيم أو حكماء تفزع إلى رأيهم في الخطوب،وتستعين بتجاربهم في المشكلات، وتأخذ بمشورتهم في جميع شؤون الحياة، فكان هؤلاء الحكماء يحتلون مكانة مرموقة عند العرب.

أما الأمثال فهي أصدق شيء يتحدث عن حياة الأمة وتفكيرها، وعقليتها وتقاليدها وعاداتها، وهي تصور المجتمع وحياته أتم تصوير، فلا شكّ أنها مرآة للحياة الاجتماعية وقد احتفل شعر الجاهلية ونثرها بكثير من الحكم والأمثال التي امتلأت بها كتب الأمثال والأدب.

ثم الطب: الذي كان للعرب منه نصيب كبير، وهو إما مكتسب بالتجارب،أو منقول عن غيرهم من الأمم المجاورة كالفرس والروم، وكانوا يعالجون مرضاهم بخلاصة النباتات أو بالعسل، أو بالكيّ بالنار، وأحياناً بالبتر وغير ذلك، وكثيراً ما كان يحصل لمرضاهم الشفاء مما يشكون من آلام، إلا أنه كان عندهم بعض الخرافات كإيمانهم بأن دم السادة يشفي من الكَلَب، وإن عظام الميت تشفي من الجنون ونحو ذلك، فكان طبهم قاصراً، لأنه لم يكن مبنياً على قواعد علمية، يقول ابن خلدون: "وللبادية من أهل العمران طبٌ يبنونه في غالب الأمر على تجربةٍ قاصرةٍ على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحيِّ وعجائِزه، وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبعي ولا

(١) البيان والتبيين جـ١ ص٣٦٥.

على موافقة المزاج، وكان عند العرب من هذا الطب كثير، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كَلَدَة وغيرة[١].

ومن أشهر أطبائهم: الحارث بن كَلَدَة الثقفي، وهو من ثقيف، ورحل إلى فارس حيث تعاطى الطبّ هناك، ثم عاد إلى بلاده، وأدرك عصر الرسول ﷺ، وقد عاش حتى أدرك عهد معاوية، وكان الرسول ﷺ يشير على من به علة أن يستوصفه، ومن حكَمه: "البطنةُ بيت الداء والحميةُ رأس الدواء". ومن أطبائهم كذلك ابن حِذْيَم[٢] وكان مشهوراً بالحذق في الطب، بل إن بعضهم فضله على ابن كَلَدَة.

وكان للعرب معرفة تامة بعلاج الخيل والبغال والحمير والإبل ونحو ذلك مما يطلق عليه اليوم الطب البيطري، فقد نبغوا في معرفة محاسن تلك الحيوانات وعيوبها وأمراضها وطرق علاجها. هذا إلى معرفتهم بالنجوم ومطالعها وأنوائها، وكذلك المطر والرياح وزجر الطير والعيافة وغير ذلك، ثم عنايتهم بالقصص والأخبار وأيام الناس إلى غير ذلك من المعارف التي لا مجال لذكرها هنا. وهكذا كانت معارف العرب شاملة لأمور حياتهم وما يتصل بها في شتى الميادين.

حياتهم الدينية:

كان في الجزيرة العربية قبل الإسلام أديان ومعتقدات متنوعة، فكانت حياتهم الدينية مختلفة الألوان والمظاهر والعقائد، فكان هناك الوثنيّة التي كانت منتشرة انتشاراً واسعاً، ثم اليهودية والنصرانية والحنيفية وغير ذلك من الأديان والمعتقدات.

الوثنية: وهي عبادة الأصنام والأوثان، وعليها كان أكثر العرب الجاهليين، فكانت الدين السائد في جزيرة العرب، والفرق بين الصنم والوثن أنه "إذا كان معمولاً من خشب أو ذهب أو من فضة صورة إنسان فهو صنم وإذا كان من حجارة فهو وثن"[٣] فالأصنام هي تماثيل الإنسان من المعادن أو الخشب، والأوثان هي تماثيل الإنسان من الحجر، وقد تسمى الأصنام بالأوثان كذلك.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٩٣ ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان. وفي الأصل طبيعي وهو خطأ شائع.

(٢) بلوغ الأرب للألوسي ٣/ ٣٢٨ ـ ٣٣٧.

(٣) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص٥٣.

يقول هشام بن محمد بن السائب الكلبي: "واستُهْتِرَتْ[١] العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتاً،ومنهم من اتخذ صنماً، ومَن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نَصَبَ حجراً أمام الحرم وأمام غيره، مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت،وسموها الأنصاب. فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان، وسموا طوافهم الدوار. فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً، أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتّخذه ربّاً، وجعل ثلاث أثافيَّ لقِدْره، وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك، فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها يحجونها ويعتمرون إليها"[٢].

ويبين ابن الكلبي كيف بدأت الوثنية ثم انتشرت ببلاد العرب،وذلك أنهم كانوا يعظمون الكعبة تعظيماً شديداً، فلما تكاثروا وضاقت بهم مكة هاجروا منها،وكان لا يظعن من مكة ظاعن إلا حَمَلَ معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً له وحباً لمكة، فحيثما أقام وَضَعَه وطاف به كما كان يطوف بالكعبة، ثم استمروا على تعظيم هذه الحجارة حيناً تأصل فيهم حبُّهم لها حتى عظموها، ثم استحال هذا التعظيم إلى العبادة. وبذلك استبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان، فنراه يقول: "حدثنا أبي وغيره أن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، لما سكن مكة وولد له أولاد كثير حتى ملؤوا مكة ونَفَوْا من كان بها من العماليق، ضاقت عليهم مكة، ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضاً، فتفسحوا في البلاد والتماس المعاش. وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابةً بمكة فحيثما حلُّوا، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تَيمُّناً منهم بها، وصبابةً بالحرم وحبّاً له، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم. وانتجثوا[٣] ما كان يعبد قوم نوح عليه السلام منها، على إرث ما بقي فيهم من ذكرها. وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون

---

(١) الاستهتار بمعنى الولوع في الشيء والإفراط فيه.

(٢) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص٣٣.

(٣) انتجثوا، أي بحثوا، أو استخرجوا.

بها: من تعظيم البيت، والطواف به والحج والعمرة، والوقوف على عرفة ومزدلفة، وإهداء البُدْنِ، والإهلال بالحجّ والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه"(١).

ويبدو أن فكرة الأصنام وتقديسها انتقلت إليهم من خارج بلادهم، لأنه ورد أن قريشاً في الأصل كانت على دين إبراهيم عليه السلام، وكانوا يحجون البيت ويقيمون المناسك، ويذكر ابن الكلبي وكذلك ابن هشام في سيرته رواية تبين لنا تاريخ تحول العرب عن عبادة الله إلى الوثنية، فيروي ابن الكلبي أن عمرو بن لُحَيٍّ بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي وهو أبو خزاعة، كان حاجب الكعبة، ثم إنه مرض مرضاً شديداً فأشار عليه بعضهم أن يذهب إلى البلقاء في الشام ليستحمّ في ماء هناك، فذهب واستحم وشُفِي، ووجد أهل البلقاء يعبدون الأصنام فقال: ما هذا، فقالوا: نَستسقي بها المطر، ونَستَنصِر بها على العدو. فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة(٢). وذكر ابن هشام أن عمرو بن لُحَيّ خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فلما قدم مُؤاب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق، رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنماً، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له هُبَل، فقدم به مكة، فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه(٣).

وكان لكل قبيلة صنم أو أكثر، وكان عند الكعبة أصنام كثيرة، ويروى أنه كان حولها ثلاث مئة وستون صنماً. وكانوا قد صوروا هذه الأصنام أو نحتوها رمزاً لآلهتهم، وقد يرون في بعض الأحجار والآبار والأشجار ما يرمز إليهم، فروي عنهم أنهم عبدوا "العُزَّى" وهي شجرة بوادٍ من نخلة الشآمية شرقي مكة، وكانت من أعظم الأصنام عند قريش، فكانوا يزورونها، ويهدون لها، ويتقربون عندها بالذبائح، وكانت العرب وقريش تسمي بها "عبد العُزَّى" وكان سَدَنَة العزى بنو شيبان بن جابر بن مُرَّة وكان آخر مَن سَدَنَها منهم "دُبَيَّة السُّلَمي" وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ **أفرأيتمُ اللاّتَ والعُزّى** ﴾ [النجم: ١٩]. ولم تزل العُزَّى كذلك حتى بعث

---

(١) كتاب الأصنام ص٦.

(٢) المرجع السابق ص٨.

(٣) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص٣٥٠.

محمداً ﷺ فعابَها وغيرها من الأصنام ونزل القرآن فيها، ونهاهم عن عبادتها. ومن الطريف ما يذكره ابن الكلبي إذ يقول: " فاشتد ذلك على قريش، ومرضَ أبو أُحيحة وهو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف مرضه الذي مات فيه، فدخل عليه أبو لهب يعوده، فوجده يبكي، فقال: ما يبكيك يا أبا أُحيحة؟ أَمِنَ الموت تبكي ولا بد منه؟ قال: لا. ولكني أخاف ألا تعبد العُزَّى بعدي، قال أبو لهب: والله ما عُبِدَتْ حياتك (لأجلك) ولا تترك عبادتها بعدك لموتك! فقال أبو أُحيحة: الآن علمت أن لي خليفة، وأعجبه شدة نَصَبِه في عبادتها "(١).

وفي عام الفتح دعا النبي ﷺ خالدَ بن الوليد وأمره بقطعها، فانطلق إليها وأخذ سادنها دُبَيَّةَ السُّلميَّ فقتلَهُ، وقطعها وهو يقول:

يا عُـزُّ كُـفْـرانكِ لا سبـحـانكِ إنِّي رأيـتُ اللهَ قـد أهـانَكِ

ثم أتي النبي ﷺ فأخبره فقال: "تلك العُزّى ولا عُزَّى بعدها للعرب أما إنها لن تعبدَ بعدَ اليوم"(٢).

ومن أشهر أصنامهم كذلك "اللات" وهي صخرة مربعة بيضاء أقامت عليها ثقيف بيتاً، فقد سَدَنَها من ثقيف بنو عتَّاب بن مالك، وكانت قريش تعظمها هي وجميع العرب. وتردَّدَ في أسماء العرب " زيد اللات وتيم اللات" وهي التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى** ﴾ وبقيت حتى أسلمت ثقيف، حيث بعث رسول الله ﷺ المُغيرة بن شُعْبَة فهَدَمَها وحرَّقها بالنار. وفي ذلك يقول شداد بن عارض الجُشَمِيُّ حيث هُدِّمت وحُرِّقت، ينهى ثقيفاً عن نصرتها وعن العودة إلى عبادتها:

لا تنصروا اللاتَ إن اللهَ مُهلِكُها وكيف نصركُم مَن ليس يَنتصِرُ
إن التي حُرِّقَتْ بالنارِ فاشتعلَتْ ولم تُقاتل لدى أحجارها هَدَرُ
إنَّ الرسول متى ينزلْ بساحتِكم يَظْعَنْ وليس بها من أهلها بَشَرُ

ومن أصنامهم المشهورة أيضاً "مَناة" وكان أقدمها كلّها، وهو صخرة منصوبة على ساحل البحر الأحمر بين مكة والمدينة، وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله،

(١) كتاب الأصنام ص٢٣.
(٢) المرجع السابق ص٢٦.

فعظمته قبائل قريش وهُذَيل وخُزاعة لا سيما الأوس والخزرج،ومن كان ينزل مكة والمدينة وما قاربهما، يعظمونه ويذبحون حوله ويهدون له القرابين، وروي أنه لم يكن أحد أشدّ إعظاماً له من الأوس والخزرج" ومَن يأخذ بأخذهم من عرب أهل يثرب وغيرِها،فكانوا يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلّها، ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتَوْهُ فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك، فلإعظام الأوس والخزرج يقول عبد العزى بن وديعة المزني أو غيره من العرب:

إنـي حلفْتُ يمينَ صـدقٍ بَرَّةٍ ... بمناةَ عند محلِّ آلِ الخَزْرَجِ (١)

وكانت العرب تُسمى "عبدمَناة وزيد مَناة" وقد ذكرت مناة في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ **ومَناة الثالثة الأخرى** ﴾ [النجم: ٢٠] وفي عام ثمان من الهجرة، وهو عام الفتح بعث الرسول ﷺ علياً إليه فهدمه.

ومن أعظم الأصنام التي كانت حول الكعبة "هُبَل" فهو أعظم الأصنام عند قريش وهو كبير آلهة العرب، وكان العرب يحجون إليه من كل فجٍّ عميق،وكان أول من نصبه خُزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، ولذلك كان يقال له: "هُبَل خزيمة" ويذكر ابن الكلبي أنه كان من عقيق أحمر على صورة إنسان، وكان مكسور اليد اليمنى ثم أدركته قريش فجعلوها من ذهب(٢). وروى أنهم كانوا يستقسمون عنده بالأزلام، يقول ابن الكلبي: " وكان في جوف الكعبة قُدَّامة سبعةُ أَقداح، مكتوب في أولها "صريح" والآخر "مُلْصَقٌ"(٣). فإذا شكّوا في مولود أهدوا له هدية ثم ضربوا بالقداح . فإن خرج "صريح" ألحقوه، وإن خرج "مُلْصَقٌ" دفعوه، وقدح على الميت، وقدح على النكاح، وثلاثة لم تُفَسَّر على ما كانت. فإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أو عملاً، أَتَوْهُ فاستقسموا بالقداح عنده، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه. وعنده ضرب عبدُ المطلب بالقداح على ابنه عبد الله والد النبي ﷺ "(٤).

---

(١) المرجع السابق ص١٤.
(٢) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص٢٨.
(٣) الملصق -كالملزق والملسق- الدعي.
(٤) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص٢٨.

وباسمه كان أبو سفيان ينادي حين ظفر يوم أُحُدٍ ويصيح: أُعْلُ هُبَل، أي: علا دينك، فقال رسول الله ﷺ: "الله أعلى وأجَلّ"(١).

ومن أصنام قريش المشهورة كذلك "إسافٌ ونائلة" ويروي ابن الكلبي أن إسافاً ونائلة في الأصل رجل وامرأة من جُرْهُمٍ، وكان الرجل يعشق المرأة في أرض اليمن ثم أقبلا حاجين،فدخلا الكعبة فوجدا غفلة من الناس وخلوة في البيت، ففَجَرَ بها في البيت وواقعها، فَمُسخا حَجَرَيْن، ولما مسخا حجرين وضعوهما عند الكعبة ليتعظ بهما الناس، فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عُبِدا معها، ويقال: إن أحدهما كان ملاصقاً للكعبة والآخر في موضع زمزم، فنقلت قريش الذي كان ملاصقاً للكعبة إلى الآخر، فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما(٢). وقد عبدتهما خُزاعة وقريش ومن حَجَّ البيت من العرب، وقال أبو طالب وهو يحلف بهما، حيث تحالفت قريش على بني هاشم في أمر النبي ﷺ:

فأَحْضَرْتُ عند البيت رَهْطِي ومَعْشَرِي وأَمْسَكْتُ من أثوابه بالوصائِلِ

وحيث يُنيخُ الأشْعَرونَ رِكابَهُم بِمُفْضَى السيولِ من إسافٍ ونائلِ

ومن أصنامهم: وُدٌّ وسُوَاعٌ ويَغُوثُ ويَعُوقُ ونَسْرٌ.

أما وُدٌّ: فهو تمثال رجل عظيم، ونقش عليه حلتان متزرٌ بحلة ومرتدٍ بالثانية ومعه أدوات الحرب، وكان بدُومَةِ الجَنْدَلِ لِكَلْبٍ وقُضاعةَ.

وأما سواعٌ(٣): فكان برُهاطٍ من بطن نخلة يعبده من يليه من مضر، وفي القاموس:أن رُهاطاً موضع على ثلاث ليال من مكة،وكان سَدَنَتَهُ بنو لحيان من هُذيل قال رجل من العرب:

تراهم حولَ قِبلَتِهم عُكُوفاً كما عَكَفَتْ هُذيلٌ على سُواعِ(٤)

---

(١) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص٢٨.

(٢) المرجع نفسه ص٢٩.

(٣) بضم السين وفتحها: صنم عبد زمن نوح فدفنه الطوفان فاستثاره إبليس فعبد وصار لهُذَيل وحُجَّ إليه... هكذا في القاموس.

(٤) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص٥٧.

ويروى أن هذيلاً أول من اتخذ الأصنام وسماها بأسمائها، قال ابن الكلبي: "وكان أول من اتخذ تلك الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم من الناس وسموها بأسمائها على ما بقي فيهم من ذكرها حين فارقوا دين إسماعيل هُذَيْل بن مدركة"(١).

وأما يَغُوثُ: فكان بأكَمَةٍ باليمن، وعبدته مَذْحِجٌ ومن والاها.

وأما يَعُوقُ: فكان بقرية تسمى خَيْوان وكان معبوداً أولاً لقوم نوح،أو كان رجلاً صالحاً أقاموا له تمثالاً ثم عبدوه، وهو لِهَمْدان ومن والاها من أرض اليمن.

وأما نَسْرٌ: فكان باليمن وكانت حِمْيَرٌ تعبده.

وقد ورد ذكر هذه الأصنام في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿**قال نوح رب إنَّهم عَصَوْني واتبعوا مَن لم يَزِدْهُ ماله وولده إلا خساراً، ومكروا مكراً كُبَّاراً، وقالوا لا تذرُنَّ آلهتكم ولا تذرُنَّ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْراً**﴾ [نوح: ٢١-٢٣] وكانت هذه الأصنام الخمسة تُعْبَدُ في عهد نوح عليه السلام، ويبدو أن عرب الجاهلية جددوا عبادتها بعد نوح، قال ابن الكلبي: "فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، وانتجثوا ما كان يعبد قوم نوح عليه السلام منهاعلى إرثٍ ما بقي فيهم من ذكرها"(٢).

ومن أصنامهم "ذو الخَلَصَة" وهو صنم خَثْعَم وبجيلة وأزد السَّراة وهَوازن ويقال: إنه كان مَرْوَةً بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج، وكان موضعه بتَبالة بين مكة واليمن(٣). إلى غير ذلك من الأصنام الكثيرة التي كانت تتعبد لها قريش والقبائل العربية، وقد أفاض ابن الكلبي في كتاب الأصنام في ذكر تلك الأصنام وأخبارها وما جاء فيها من أشعار.

أما الأنصاب فهي جمع نُصُبٍ، وهو حجر أو صخرة ليس له صورة معينة تجري عليه قبيلة من القبائل أوضاع العبادة، لما تزعمه من أصلها السماوي إن كانت حجراً بركانياً أو ما يشبهه(٤). ويقول ابن الكلبي: "وكانت للعرب حجارة غير منصوبة

---

(١) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص٩.

(٢) المرجع السابق ص٦، وانتجثوا، أي: بحثوا أو استخرجوا.

(٣) كتاب الأصنام ص٣٤. والخَلَصة: بفتح الخاء واللام وبضمهما.

(٤) حياة محمد لهيكل ص٩٩.

يطوفون بها ويَعْتِرون[1] عندها. يسمونها الأنصاب، ويسمون الطواف بها الدِّوارَ"[2].

وقيل إن الأنصاب حجارة كانوا يتخذونها عند هياكل الأصنام والأوثان يصبون عليها دماء الذبائح والقرابين، فكانوا يقدسونها. وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عَمَلِ الشيطانِ فاجْتَنِبوهُ لَعَلَّكُم تُفلحونَ**﴾ [المائدة: ٩٠]. وأما الأزلام فهي القداح التي كانوا يضربونها عند الأصنام إذا اختصموا في أمر، أو أرادوا سفراً أو عملاً ما كما مرَّ.

وقد جعلوا للحجِّ أربعة أشهر معلومات، سُميت الأشهر الحُرُم، وهي ذو القِعْدَة وذو الحِجَّة والمحرم ثم رجب، وكانت هذه الأشهر حراماً عندهم، فلا يُستباح فيهم دم، ولا تَنْشَبُ أثناءها حروب،وذلك احتراماً لحرمة الكعبة التي كان العرب يأتون إليها حاجِّين أو مُعتَمِرين من أنحاء الجزيرة العربية.

وكانت لهم في الحَجِّ شعائر وطقوس لعلَّ أهمها التلبية،فمما يُروى عن تلبية عَكٍّ أنهم إذا خرجوا حُجاجاً قدَّموا أمامهم غُلاَمَيْن أَسوَدَيْن من غلمانهم فكانا أمام رَكْبِهم، فيقولان :نحن غرابا عَكٍّ ! فتقول عَكٌّ من بعدهما :

عكٌّ إليكَ عانيهْ عِبادُكَ اليمانِيهْ

كَيْما نحُجَّ الثانِيَهْ[3]

ويروى عن هذيل أن تلبيتهم كانت إذا حجوا:

لبَّيْكَ عن هُذَيْل قد أَوْلَجُوا بِلَيْل

في إبِلٍ وخَيْل[4]

ويبدو أن عبادة الأصنام عند العرب في الجاهلية، كانت شائعة فيهم تقليداً لآبائهم، وسيراً على ما ورثوه من أجدادهم، فلم تكن هذه العبادة نابعة عن شعور

---

(١) يعترون –كيضربون– بمعنى يذبحون.

(٢) كتاب الأصنام ص٤٢.

(٣) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص٧.

(٤) الأعلام للزركلي جـ ٩ ص٧٣.

ديني عميق، أو عاطفة روحية شديدة، وإنما هي عادات تأصلت في نفوسهم، قال الله تعـالى: ﴿ **وإذا قيلَ لهم اتبعوا ما أنزلَ اللهُ قالوا بلْ نتبعُ ما ألفيْنَا عليه آباءَنا أوَلَوْ كان آباؤُهم لا يعقلون شيئاً ولا يَهتدون** ﴾ [البقرة : ١٧٠].

وكانوا في عبادتهم للأصنام والأوثان يؤمنون بالله، فكانوا يزعمون أنها تشفع لهم عند الله، وأنها وسيلة يتقربون بها إلى الله، قال تعالى على ألسنتهم: ﴿ **ما نَعبُدُهم إلاّ لِيُقَرِّبونا إلى الله زُلْفَى** ﴾ [الزمر:٣].

وبين ذلك الظلام الدامس، كان هناك مَن يدرك أن القوم في ضلال مبين فعبدوا الله وحْدَه، ولم يشركوا معه في عبادته شيئاً آخر، إلاّ أنهم كانوا طائفة قليلة من العرب، وتدعى تلك الطائفة باسم الحُنَفاء، فكانوا يشكُّون في الوثنية، ويلتمسون ديناً جديداً يهديهم سواء السبيل. قال ابن إسحاق: "واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه وينحرون له،ويَعْكفُون عنده، ويُديرونَ به، وكان ذلك عيداً لهم، في كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نَفرٍ نَجيّاً، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا، وليَكْتُم بعضُكم على بعض، قالوا: أجل. وهم: وَرَقَةُ بن نوفَل بن أسد بن عبد العُزَّى، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نُفَيْل، فقال بعضهم لبعض: تعلَّموا والله ما قومكم على شيء! لقد أخطؤوا دينَ أَبيهم إبراهيم. ما حَجَرٌ نُطيفُ به، ولا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع؟! يا قوم التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفيَّةَ دين إبراهيم. فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية، وأما عُبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر، وأما زيد بن عَمرو بن نُفَيْل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبدُ ربَّ إبراهيم، وبادَى قومه بعيب ما هم عليه"(١).

ويريد الله جلَّت قدرته ، أن يطهر أرض العروبة من الشرك، وأن يخرجهم من الظلمات إلى النور،فيبعث محمداً ﷺ، فيحطِّم أصنامَهم ويقضِي عليها، ثم يدخلون في دين الله أفواجاً. "فلما ظهر رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، دخل المسجد

---

(١) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص٣٤٧.

والأصنام منصوبةٌ حول الكعبة. فجعل يطعَنُ بسيَّة قوسه في عيونها ووجوهها ويقول: ﴿جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زَهُوقاً﴾ ثم أمر بها فَكُفِئَتْ على وجوهها. ثم أخرجت من المسجد فَحُرِّقَتْ" (١).

وبجانب الوثنية كان هناك اليهودية والمسيحية وبعض المعتقدات الأخرى، أما اليهودية: فقد دخلت إلى الجزيرة العربية، فكانت في اليمن فقد عمل اليهود على نشر ديانتهم فيها حتى تهود بعض قبائل العرب مثل حِمْيَر، وقد استطاع يهود اليمن في أوائل القرن السادس الميلادي أن يؤثروا في ملك من ملوك التبابعة هو ذو نُوَاسٍ الذي اشتهر بتحمسه لليهودية، واضطهاده لنصارى نجران وتحريقهم تعصباً ليهوديته.

وكانت اليهودية في الحجاز كذلك، فقد كان لهم بعض المستعمرات في يثرب وما حولها في فَدَكٍ وخيبر ووادى القُرى وتيماء، وكان يهود يثرب ثلاث قبائل هم: بنو النضير، وبنو قُرَيْظَةَ، وبنو قَيْنُقَاع. وقد اشتهر اليهود بالزراعة وبعض الصناعات المعدنية كالحدادة والصياغة وصنع الأسلحة.

وكان بيثرب القبيلتان العربيتان: الأوس والخزرج،وكان اليهود يعمدون عمداً إلى الإيقاع بينهما، وكان من نتيجة ذلك أن اشتبكتا في حروب دامية ومعارك حامية، حتى جمعهما الرسول ﷺ على الإسلام، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً. وقد ناهض اليهود الرسول ﷺ وكانوا يثيرون معه النقاش والجدل، ثم ذهبوا يحاولون الوقيعة بين المسلمين، بل وأخذوا يُؤَلِّبُون عليهم قريشاً وقبائل العرب، وقصتهم في معركة الأحزاب أو "الخندق" مشهورة، مما اضطره ﷺ إلى إجلائهم عن المدينة. " وقد قاوموا الإسلام وأظهروا له العداوة والبغضاء،فحاربوا الرسول، وانتصر عليهم، ولم يلبث عُمَرُ أن أمر بإجلاء كلّ من ليس له عهد منهم،فخرج جمهورهم من الجزيرة،ولم يبق منهم إلا نفر قليل"(٢) فأصبحت الجزيرة عربية خالصة.

وأما المسيحية: فقد دخلت الجزيرة العربية، وأشهر من تدين بها ربيعة وبعض قُضاعة،وكذلك بنو تغلب وطيِّئ فقد كانوا من نصارى العرب،وانتشرت النصرانية في اليمن، وكان أشهر مواطنها هناك نجران كما سبق، ثم الغساسنة بالشام لمجاورتهم

---

(١) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص٣١.
(٢) العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ص٩٨.

لنصارى الروم، وقد شاعت النصرانية بالحيرة في العراق في قبائل شتى من العرب يقال إنهم العباديون. وكان من هؤلاء النصارى شعراء مشهورون كَقُس بن ساعدة، وأمية ابن أبي الصلت، وعديّ بن زيد العِبادي.

ونلاحظ أن المسيحية - كانت تختلف عن اليهودية التي لم تذع في القبائل، ثم ينبغي علينا ألاّ نبالغ في تصور من تنصر من العرب قبل الإسلام. فالحق أن اليهودية والمسيحية كانتا قليلتين بالنسبة إلى الدين السائد في الجزيرة العربية وهو الوثنية. يقول الدكتور أحمد شلبي: "على أن اليهودية والمسيحية لم تكونا عظيمتي الخطر واسعتي الانتشار في الجزيرة العربية، فأما اليهودية فكانت دين الشعب المختار، وكان دخول العربي فيها لا يحقّق له المساواة مع اليهود من أبناء إسرائيل، ولذلك لم يقبل العربي أن يدخل ديناً يثبته في طبقة أسفل من طبقة دعاة ذلك الدين. وأما المسيحية فهي مملوءة بالتعقيدات التي لم يستسغها ذهن العربي، ومملوءة بالخلافات الحادّة التي سببت الغموض للدين، وصرفت عنه من كان يمكن أن يتبعه من العرب"(١).

وكان عند العرب في الجاهلية بعض المعتقدات الأخرى، فروي أن قوماً منهم اتبعوا المجوسية وهي عبادة النار، وكان المجوسية في بعض تميم، ومن مظاهرها إيقادهم النار لأحلافهم، ومن مذاهبهم تزوج البنات. كما روي أن قوماً من قريش اعتنقوا الزندقة، أخذوها عن بعض أهل الحِيرة الذين أخذوها بدورهم عن الفرس والزندقة تسير على مذهب ماني وتقول بوجود إلـٰهَيْن: إله النور، وهو أصل كل خير، وإله الظلام، وهو أصل كل شرٍّ، قال ابن قتيبة في كتاب المعارف عند الكلام على أديان العرب في الجاهلية: " وكانت المجوسية في تميم منهم زرارة بن عدس التميمي وابنه حاجب بن زرارة وكان تزوج ابنته ثم ندم، ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسياً، وأبو الأسود جد وكيع بن حسان كان مجوسياً، وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة"(٢).

---

(١) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبي ص١٠١ ط خامسة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٧٠.

(٢) المعارف لابن قتيبة ص٢٦٦ دار إحياء التراث العربي. بيروت - ط الثانية سنة ١٩٧٠م.

ومن العرب من كان يعبد الكواكب، فروي أن قوماً من لَخْم وخُزاعة وقريش عبدوا نجم الشِّعْرَى، كما عبدت كنانة القمر(١) وقيل: إن عرب حمير عبدوا الشمس قبل أن يتهودوا(٢). وذكر الألوسي أن قوماً من العرب كان بعضهم يعتقد في الأنواء حتى إنه " لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء، ويقول: مُطِرنا بنوء كذا"(٣) ويسمى هؤلاء بالصابئة.

---

(١) بلوغ الأرب للألوسي جـ ٢ ص٢٣٩.

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص٢٣٧.

(٣) المرجع نفسه جـ ٢ ص٢٢٣.